

التفسير المطول - سورة الأنعام 006 - الدرس(64-73): تفسير الآيات 147 . 149 ، الدعوة
البيانية - القضاء والقدر

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 26-05-2006

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس الرابع والستين من دروس سورة الأنعام، ومع الآية السابعة والأربعين بعد المئة، وهي قوله تعالى :

فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (147)

سورة الأنعام

معنى الآية :

في هذه الآية عدة معانٍ :

المعنى الأول: أن رحمة الله تقتضي ألا يردّ بأسه عن القوم المجرمين، الإنسان إذا تخلى عن تدينه، وتخلّى عن معرفة ربه، ورفض الانصياع لأمر ربه، هذا حكمه حكم المجرم، كعظمة لم يبق عليها لحمٌ إطلاقاً، لم يبق عنده خير يلقى الله به، فهو كالمجرم، جُرم لحمه عن عظمه، أو جُرد من كل خير، هذا الإنسان الشارد التائه، الغارق في شهوته، المتعلق بالدنيا، الذي لا يبالي أكان ماله حراماً أو حلالاً، ولا يبالي أكانت علاقته مشروعة أو غير مشروعة، هذا الإنسان تقتضي رحمة الله أن يعالجه، ويسوق له من الشدائد ما يعود بها إلى الله .

﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾

أنواع دعوة الله للعباد وأكمل المواقف لكل دعوة :

1 - الدعوة البيانية :

بالمناسبة أيها الإخوة، الله عز وجل لطيف يسلك في هداية خلقه مراحل، أول مرحلة؛ لطيفة، وسهلة، وواضحة، وسليمة، وأنت في صحتك، وأنت في قوتك، وأنت في شبابك، وأنت في غناك، ما عندك ولا مشكلة، لكن هناك تقصير، وهناك شرود، وهناك غفلة عن الله، الله عز وجل يدعوك إليه دعوة بيانية بالكلام، كهذا الدرس دعوة بيانية، هذه الدعوة البيانية تحفظ لك كرامتك، واستقرارك، وراحتك النفسية، وأنت صحيح، وقوي، وغني، وعندك زوجة، وأولاد، ولك عمل، ولك دخل، تأتيك دعوة لطيفة جداً بلسان عربي مبين، آية، بحديث، بقصة، بحكم فقهي، بموعظة ... إلخ.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَعَلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24)

سورة الأنفال

يعني أكمل موقف تفقه من دعوة الله البيانية أن تستجيب، وأنت في صحتك، وفي قوتك، وفي أوج نشاطك، وفي مكانتك، وفي كرامتك، اسمها دعوة بيانية، يعني محاضرة، كتاب، خطبة، درس، ندوة.

﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ ﴾ أي لم يستجيبوا لك طبعاً ﴿ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ ﴾

2 - المعالجة : المصائب والشدائد

الآن يخضعك إلى معالجة أقسى .

قال طبيب لمريض معه قرحة: هناك طريقان، إما أن تسلك حمية قاسية جداً وتشفى، أو لا بد من عملية جراحية يجب أن نستأصل قسم مصاب من المعدة، فأنت بالخيار، هناك معالجة سلمية لطيفة تعتمد على الحمية، وهناك معالجة جراحية .

فالذي لا يستجيب لدعوة الله البيانية يخضعه الله لمعالجة من نوع آخر .

وَلَنذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (21)

سورة السجدة

عَجِبَ اللَّهُ مِنْ قَوْمٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فِي السَّلَاسِلِ .

رواه البخاري عن أبي هريرة

الآن تأتي المصائب والشدائد من أجل أن تُلجئ الإنسان الشارد الغافل إلى باب الله تعالى. يعني مرة هناك أخ من باب المداعبة قال لي: ما ملخص هذه الدعوة التي أمضيت فيها ثلاثين عاماً؟ قلت له: كلمتان، لا ثالث لهما، بالتعبير الدارج: إما أن تأتيه طائعاً، أو أن يأتي بك قسراً، إما أن تأتيه ركضاً، وإما أن يأتي بك ركضاً .

إنسان قبل أن يكون أحد إخوة المسجد عنده مؤسسة صناعية ناجحة جداً، وفي السبعينات كان هناك رواج مذهل، جمع أرباحاً طائلة، قال لي بالحرف الواحد: هيأت مبلغ نصف مليون ليرة، يعني كان

الدولار بثلاث ليرات، وأردت أن أذهب إلى أمريكا لأستمتع بالحياة من دون زوجتي، فهمكم كفاية، وذهب إلى هناك، شاب، ونجاحه بالعمل كبير جداً، دخله فلكي، شعر بالآم في ظهره، ذهب إلى طبيب قال له: سرطان بالنخاع الشوكي، قطع رحلته، وعاد إلى الشام من جامع إلى جامع .
فإما أن تأتيه طائعاً، أو أن يأتي بك قسراً ، فالتكذيب :

﴿رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ لكن هناك طريق سلمي بالدعوة البيانية، وهناك طريق قسري، على كل الذي يستجيب لله عقب مصيبة إنسان موفق جداً، إلا أن الذي يأتيه قبل المصيبة إنسان راقٍ جداً، إنسان بأعلى درجة من الكرامة، عرف حق الله عليه فأثاه طائعاً.

لذلك يا إخوان، هناك فرق بين عبيد وعباد، العبيد جمع عبد، والعباد جمع عبد، لكن العبيد جمع عبد القهر، بينما العباد جمع عبد الشكر، بين أن تأتي المصيبة القاسية، مرض عضال لا تنام الليل، قيام ليل، دعاء، وبين أن تكون صحيحاً، قوياً، معافى، وأن تبحث عن الله، وأن تطلب رضاه، وأنت قوي، غني، معافى .

فأول دعوة دعوة بيانية درس، خطبة، شريط، محاضرة، ندوة، أي شيء دعوة بيانية، أو أن يخضع الإنسان للتأديب التربوي. إن لم تقبل أن تتبع حمية قاسية استعد للعملية الجراحية .

فأول دعوة دعوة بيانية، أكمل موقف فيها الاستجابة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ لا يوجد استجابة: ﴿وَلَنذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ لَأَكْبَرَ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ في الموقف الثاني أكمل موقف التوبة، وإذا ما تاب فهناك إجراء ثالث، هو خطير، لكنه سهل.

3 - الإكرام الاستدراجي :

الإكرام الاستدراجي: صحة، ومال، ودخل، ومعاصي، هذا شيء مُشاهد، ضغطه 8 . 12 . نبضه . 80 . كل التحاليل جيدة، وعنده كل يوم معصيتان أو ثلاث، ماذا حصل؟ أريد أن أستمتع بشبابي، هذا الثالث إكرام استدراجي .

فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (44)

سورة الأنعام

أكمل موقف في المرحلة الثالثة في الإكرام الاستدراجي أن تشكر، وأن تعود إلى الله وأنت خجل من هذا الإكرام، فإن لم تعد، ولم تخجل .

4 - القصم :

بقي القصم:

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ دُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾
﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾.

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ يعني أحياناً تطلب الأم من ابنها أن يدرس يرفض، يقول لها الأب: دعيه لي، أنا أدبره، وهذه الآية واضحة، قال له يا محمد :

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (12) وَبَنِينَ شُهُودًا (13) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (14) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (16) سَأَرْهَقُهُ صُعُودًا (17)

سورة المدثر

إخواننا الكرام، أغبى إنسان على وجه الأرض الذي لا يُدخِل الله في حساباته، الله أحياناً يرخي الحبل، لدرجة أنك تتوهم أن كل شيء تمام .

ركب أحدهم سيارته، وهو في طلعة الحجاز، وزوجته إلى جانبه، فأصيب بأزمة قلبية حادة، من كرم الله عز وجل أن صديقه وراءه صدفة، حملة، وأخذه إلى المستشفى على العناية المشددة، حينما شعر أنه على وشك الموت قال: أعطوني المسجلة، وشريط كاسيت، المحل الفلاني أخذه اغتصاباً من حق أخيه الصغير، المحل الفلاني، البيت الفلاني، كل شيء اغتصبه من إخوته ذكره في هذا الشريط، يبدو أن الجلطة خرج منها بسلام، وعاد طبيعياً جداً ولا شيء فيه، قال: أين الشريط؟ كسره، بعد ثمانية أشهر جاءت القاضية، وكانت نهايته بها.

أول صحوة صحاها رئيس وزراء العدو من خثرة في الدماغ قال: تابعوا اغتيال قادة المنظمات الفلسطينية، أول كلمة قالها بعد الصحوة، بعد يومين كانت القاضية .

الله أحياناً يحدث إنذاراً مبكراً، فهل تستفيد ؟

أول معالجة إلهية الدعوة البيانية، وأنت صحيح، قوي، ما عندك مشكلة، الأجهزة تعمل بانتظام، وبيتك منتظم، بيتك، زوجتك أولادك .

ثاني معالجة تأديب تربوي، بالأولى استجابة، بالثانية توبة، بالثالثة شكر، بالرابعة قصم .

المعالجة رحمة من الله تعالى :

إذاً :

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ دُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ الآن سأضرب مثلاً: طبيب أب، لماذا طبيب أب؟ طبيب عالم، وأب رحيم شعر أن عند ابنه التهاب زائدة، وهذه إن لم يسارع

إلى استئصالها قد تنتهي بالموت، فنقتضي رحمة هذا الأب العالم أن يضع ابنه على منصة العمليات، وأن يخدره، وأن يفتح بطنه، والدم يسيل، وأن يستأصل الزائدة، وأن يخيظ الجرح، وبعد أن ينتهي مفعول المخدر تبدأ آلام الطفل، لكن هذا قمة الرحمة والعلم .

يقول لي أحدهم: المسلمون وضعهم صعب جداً، ومهما دعوا لا يُستجاب لهم، مرة كان جوابي: هم في عملية جراحية، ولم تنته بعد، فلو أن البطن مفتوح، والأحشاء خارج البطن، والعملية معقدة جداً، وقال ابن هذا المريض: ارحموه، كيف أرحمه؟ مما أنا به أرحمه، هذه العملية هي رحمة الطب .

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أحياناً تدخل اليد الإلهية بمصيبة هي سبب نجاة الإنسان في الدنيا .

شعور الإنسان في أثناء المعالجة :

والله هناك أخ له أخ أكبر منه شارد عن الله شروداً كبيراً، يعني غارق في كل المعاصي والآثام، وغني، وله علاقات، وشبكة علاقات، أصيب بأزمة قلبية، أخذه إلى المستشفى في العناية المشددة، يقول لي: أنا أناجي ربي، يا رب، أنا تحب أن ألقاك عارياً، أعطني مهلة لأرتدي ثوباً ألقاك به، يعني يقصد أنه لو أن الله عز وجل أمهله يتوب، الله عز وجل أمهله، فأصبح يزورني كل يوم تقريباً، قال لي: البارحة ناجيت ربي قلت له: يا رب، كل هذه السعادة من الرجوع إليك لم لم تأتني هذه الأزمة قبل عشر سنوات ؟

يعني الإنسان أثناء المصيبة يشعر بحالة قرب من الله كبيرة جداً، فلما يدخلك الله عز وجل في عنايته فافرح، لأنك ضمن عنايته، الذي عنده ابن منغولي تركه، الذي عنده ابن ذكي، ولكنه مقصر يعاقبه كل يوم، المعاقبة دليل وجود الأمل

هناك رجل معه التهاب المعدة، أقام الطبيب عليه النكير، أعطاه أكلتين فقط، الحليب والتفاح، وأي شيء آخر يتفاح مرضك، وعنفه، ورفع صوته عليه، جاءه بعد دقائق مريض معه سرطان من الدرجة الخامسة، قال له: ماذا أكل ؟ قال له: كل ما شئت، أنت ليس عليك مشكلة، كل، لأنه ميؤوس منك، فحينما يكون الإنسان في عناية مشددة، في متابعة إلهية، هذا من فضل الله علينا جميعاً، لذلك :

لذلك أكبر إنجاز لك في الدنيا أن نصل إلى القبر ونحن سالمون .

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ والله أيها الإخوة، إن لم

يذب الإنسان يوم القيامة محبة لله على ما ساقه له من شدائد .

يعني لي قريب أظنه صالحاً، ولا أزكي على الله أحداً، عاش حياته كلها بالأمراض في جهازه الهضمي، فمرة في ساعة مناجاة بكى، قال: يا رب، أنا ما ارتحت يوماً، قال: وقع في قلبه، أن يا

عبيد، لولا هذا لما كنت في هذا المقام، لولا هذه الشدائد التي سقتها إليك والتي طهرتك من ذنوبك، ومن عيوبك لما كنت في هذا الحال معي .

لذلك المؤمن دائماً راضٍ عن الله، راضٍ عن كل شيء ساقه الله له.

الآن ننتقل إلى آية أخرى، لكن في موضوع القضاء والقدر :

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ دَاوُوا بِأَسْنَانِهِمْ فَلَوْلَا مَا بَدَأَ اللَّهُ مِنَ الظَّالِمِينَ لَمَا كَانُوا صَرَفًا إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ نَقَّابُنَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ
تَخْرُصُونَ (148)

سورة الأنعام

القضاء والقدر :

هذه الآية أصل في القضاء والقدر :

إخواننا الكرام، هذه الآية أصل في نفي الجبر، وحينما نعتقد عقيدة الجبر يُلغى الدين، ويُلغى الثواب والعقاب، وتُلغى الجنة والنار، ويُلغى التكليف، ويُلغى حمل الأمانة، وتصبح الحياة تمثيلية سمجة، أنت هل ترضى أن تُجرى مسابقة تقدم لها آلاف الناس والناجح معروف قبل إعلان المسابقة، والراسب معروف سلفاً؟ تقول: هذه تمثيلية إذاً، أيعقل أن يُخلق الإنسان في الأصل كافراً؟ وأن يأتي إلى الدنيا ليحقق مشيئة الله بالكفر، ثم يعاقبه الله إلى أبد الأبد بالنعاب، هل ترضى؟ .

أثر عقيدة الجبر السيئ في المسلمين :

لذلك أيها الإخوة، ما شلّ المسلمين ولا أحرهم إلا عقيدة الجبر، يكون الإنسان غارقاً في المعاصي، ترتيب سيدك يقول، ترتيب سيدك، الله ما هداه، عتره الله، من أطلعك على الغيب؟ من؟ لم لا تصلي يا أخي؟ الله ما هداني بعد، حتى الله يهديني، يا رب إن سيئاتنا من قضائك، بالدعاء، إن سيئاتنا من قضائك، ما لنا ذنب أبداً، أنت قدرت علينا هذه السيئات، ماذا نفعل؟

هناك عقائد جبرية شلت هذه الأمة شللاً كاملاً، لذلك هذه العقيدة فاسدة أن تعتقد أن الله أجبرك على المعاصي، وأنه ألقاك في اليم مكتوفاً مقيداً، هو ألقاك، وقال: إِيَّاكَ أَنْ تَبْتَلِيَ بِالمَاءِ، ما هذا الكلام، لذلك قال الله عز وجل :

وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ۗ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۗ وَإِنْ يَسْتَعِثُوا يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۗ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (29)

سورة الكهف

قال :

إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (3)

سورة الإنسان

وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (148)

سورة البقرة

الإنسان يعني ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ لكن الأصل في موضوع الاختيار هذه الآية: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ هذا القول كذب، والدليل: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ هذا قول كذب، كذب على الله .
﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ دَاوُوا بِأَسْنَا فَلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾.

الأصل في الإنسان الاختيار :

أيها الإخوة، الله عز وجل خيرنا فيما كلفنا، كلفك أن تصلي وأنت مخير، كلفك أن تصوم وأنت مخير، أليس هناك أناس يصومون، وأناس لا يصومون، يصلون أو لا يصلون يصدقون أو يكذبون، يتقنون أو لا يتقنون، يخلصون أو يخونون، يرحمون أو لا يرحمون؟ لقد خيرك الله عز وجل فيما كلفك، والأدلة كثيرة جداً .

بل يقول الإمام الحسن: " لو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب، ولو تركهم هملاً لكان عجزاً في القدرة " .

سيدنا علي سئل: >> أكان مسيرنا إلى الشام بقضاء من الله وقدر؟ قال الإمام علي: >> ويحك يا هذا، لو كان قضاء لازماً وقدرًا حاتماً، إذًا لبطل الوعد والوعيد، ولانتفى الثواب والعقاب، إن الله أمر عباده تخييرًا، ونهاهم تحذيرًا، و كلف يسيرًا، ولم يكلف عسيرًا، وأعطى على القليل كثيرًا << .

جوانب من تسيير الإنسان :

في الثانية التي تتوهم فيها أنك مُسَيَّر في كل شيء، طبعاً أنت مسير في أشياء كثيرة ، أنت مسير فيما إذا كنت ذكراً أو أنثى، أحد استشارك؟ ماذا تحب ذكر أم أنثى؟ ما أحد استشارك، وأنت مسير في أمك وأبيك .

قال لي أحدهم: أمي تغلبنى كثيراً، قلت له: طلقها، قال: أطلقها!! أمك قدرك، الله سيرك في كونك ذكراً أو أنثى، وسيرك في أمك وأبيك، وسيرك في وقت مولدك، أنت من مواليد 50 أو 60 لو أتيت قبل منتي سنة هناك ترتيب ثانٍ .

لو أنّ إنساناً أنهضناه من قبره، وقلنا له: هناك قرص فيه 7700 كتاباً، أنا عندي قرص مدمج فيه 7700 كتاباً، ممكن أن تبحث في هذه الكتب في 13 ثانية، كل كتب التفسير، كل كتب الحديث، كل كتب الفقه، كل كتب السيرة، كل كتب المعاجم واللغة والتاريخ 7700 كتاب يعني أربع جدران للسقف، لو أنهضت إنساناً من قبره، وقلت له: عندنا قرص فيه كل هذه الكتب، ومضبوطة بالشكل، تختار الحرف، تكبره، تصغره، وفيه 200 حرف، تختار الألوان، كله باختيارك، شيء لا يصدق، فكل إنسان ولد في عصر، لذلك مثلاً هناك نص قبل خمسين سنة لأحد الأدباء، قال :

يا ليت آباءنا استغنوا عن التجارة وعن ذل البيع والشراء، وعن ترويح السعلة بالأقسام والأيمان فما العيش إلا عيش الموظفين.

قبل خمسين سنة كان الموظف أغنى إنسان، والتجارة كلها ذل وهوان، الآن هناك فتوى ببلد عربي أنه تجوز الزكاة على كل الموظفين عدا الوزراء فقط، اختلف الوضع اختلافاً كلياً ، يعني تصور أن رسالة من الشام إلى البصرة، أو من المدينة إلى البصرة تحتاج شهراً، الآن تخاطب العالم كله بأقل من ثانية، هناك تطور غريب، وكل عصر له سلبياته وإيجابياته .

إذا أنت مسير في كونك ذكراً أو أنثى، مسير في أمك وأبيك، مسير في عصرك أحدهم ولد في الشام، وأحدهم ولد في بلد غارق في الانحلال والإباحية، هناك فرق كبير جداً . أنت مُسير في قدراتك العامة، هناك إنسان وسيم، وإنسان غير وسيم، هناك إنسان عنده انتقاد ذهني كبير جداً، وهناك إنسان أقل اتقاداً .

مرة حدثنا داعية توفي . رحمه الله . يلقي درساً بالجامع، ألقى درساً، وصلى العشاء، قال: إن هناك فساداً عريضاً في البلد، تأتي البنت الساعة الواحدة ليلاً، أين كانت؟ عند الحبيب، الكل صلى على الحبيب، قاموا ليصلوا قرأ آية كريمة :

قَالَ فَعَلَّهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (20)

سورة الشعراء

فالجميع قالوا : آمين بعدها .

الجواب المسير فيها الإنسان هي أكمل شيء :

فذلك قضية أنت مسير في كونك ذكراً أو أنثى، مسير في أمك وأبيك، مسير في مدينتك، وفي زمن ولادتك، مسير في قدراتك العامة، لكن يجب أن تعلموا علم اليقين أن هذا الذي سيرك الله به ليس في إمكانك أبدع مما أعطاك، هو أكمل شيء لك، وسره أذخر ليوم القيامة، يكشف الله لك عن سره يجب أن تذوب محبة لله عز وجل، يجب أن تذوب محبة لله على أنه أقامك بهذا الوضع، بهذا الشكل، بهذه القدرات، بهذه الوسامة، بهؤلاء الأهل، بهذه المدينة، إنسان يأتي من أب فقير جداً يشتهي أن يأكل. مرة في بعض الأحياء الفقيرة شاهدت طفلاً أتى بعلبة سردين، وثقبها، وربطها بخيط، وملأها تراباً، وجعلها سيارة، طفل آخر ريمونت كونترول وألعاب، وكمبيوترات، وغرفة خاصة له، هذا غير هذا، لكن لأن الدنيا مؤقتة، والآخرة دار جزاء.

فالبطولة أن تقف الموقف الكامل من أي شيء اختاره الله لك، يعني لو أن اثنين، أحدهم يتمنى أن يأكل لقمة لحم في الشهر، لا يوجد، والثاني تُخَم من اللحم، وماتا، لو أن الفقير نجح بامتحان الفقر، فكان أديباً وصابراً، وعفيفاً، ومتجماً، وعزيز النفس، مع أن دخله قليل جداً، والغني كبر، وغطرسة، واستعلاء، وارتكاب للمعاصي والآثام، لو أن الاثنين عاشوا ستين سنة، أو ثمانين سنة، وماتوا، الآن هناك أبد إلى ما لا نهاية، تقول: مليار مليار، مليار، مليار ليوم القيامة، الأبد أطول، فإذا خسر أحدهم الثمانين سنة، وربح الأبد ألا يكون أكبر رابح؟ والذي ربح الثمانين سنة، وخسر الأبد يكون أكبر خاسر .
فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ۗ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (15)

سورة الزمر

يعني أكبر خسارة أن تخسر الآخرة، لذلك لما يسوق الله للإنسان الشدائد من أجل أن يتوب، ويتوب، ويأتيه ملك الموت، ويرى مكانه في الجنة، قال يعرق عرق الخجل من الله عزوجل .
 وبعضهم قال: يصيح صيحة ويقول: لم أرَ شراً قط، ينسى كل الخير، وإذا غرق الإنسان - والعياذ بالله - في نعيم الدنيا، ثم جاءه ملك الموت كيف يكون ؟
 أحد الطغاة ببلد إسلامي بالشمال قبل يومين من وفاته يقول: حريق، أين مدير الإطفاء؟ ويسبه، عاش ثلاثة أيام في جو الحريق .

لذلك البطولة في النهاية، والبطولة بالخاتمة، والبطولة بالعاقبة، والبطولة بعد الموت، والغنى والفقر بعد العرض على الله، والوسامة والدمامة بعد العرض على الله، إذا كانت المرأة جميلة، وتفلتت، وعرضت مفاتنها على الناس، ولم تعباً لا بدين، ولا بقيمة، وامرأة جمالها دون الوسط، لكنها مطيعة لله، هذه تكون يوم القيامة ملكة من ملكات الجمال في الآخرة، لأن ثمة تسوية حسابات .

هذه الدنيا فانية : " وتغر ، تضر ، وتمر " .

هذا المثل ضربته لكم كثيراً :

أعرف رجلاً توفي . رحمه الله . كان يعمل موظفًا بسيطاً جداً، وهو شاب في محل بالحمدية، وكان ذا دعابة، فكان يكتس المحل، يضع في علبة أنيقة القمامة يغلفها بغلاف هدايا فخم جداً، وشريط أحمر مع عقدة مكسرة أيضاً، ويضعها على الرصيف، يأتي إنسان ساذج يظنها علبة ماس، يحملها ويركض، هو لحق به، بعد 200 متر يفتح الشريط، 200 ثانية يفتح الغلاف، 200 الثالثة يفتح العلبة، تخرج قمامة المحل، يسب، ويقول كلاماً سيئاً جداً، هكذا الدنيا تغر، وتضر، وتمر .

يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي(24)

سورة الفجر

ما من واحد ما دخل بيتاً فخماً جداً من بيوت دمشق، وصاحبه توفاه الله، أنت وازن هذا الجبصين، والرخام الأونكس، والثريات، وصاحبه بباب صغير، الذي مات، هو الذي نقى هذه الأشياء كلها من اختيار، ظل شهراً يختارها، الجبصين وغيره، أحضر الكتالوكات واختار، أين هو الآن؟ في باب الصغير. هذا واقع يا إخوان، هل هناك شيء بعيد عن الواقع أقوله! الدنيا تغر، وتضر، وتمر .
لذلك :

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ والخرص أشد أنواع الكذب .

إخواننا الكرام، أوضح مثل تعرفونه كثيراً، وذكرته كثيراً :

إن إنساناً جاء لسيدنا عمر، وهو شارب خمر، قال: أقيموا عليه الحد، قال له: والله يا أمير المؤمنين إن الله قدر عليّ ذلك، الله قدر عليك؟! الآن العوام يقولون: طاسات معدودة، بأماكن محدودة، هذه آية أم حديث؟ كلام لا معنى له إطلاقاً، فقال سيدنا عمر: أقيموا عليه الحد مرتين، مرة لأنه شرب الخمر، ومرة لأنه افتري على الله، قال له: ويحك يا هذا إن قضاء الله لم يخرجك من الاختيار إلى الاضطرار .

بين الآيات المحكمات والمتشابهات :

إخواننا الكرام، هناك قضية أصولية دقيقة، الآيات المحكمات، وهذه محكمة ما معنى محكمة ؟ يعني لها معنى واحد، لا يختلف على معناها اثنان، لا تحتاج إلى تفسير ولا إلى زمخشري، ولا إلى قرطبي، ولا تحتاج إلى خلاف بين العلماء، ولا بين الفقهاء قضية محكمة، يعني لها معنى واحد، لا يختلف عليه اثنان، الآية المتشابهة :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (130)

سورة آل عمران

التحريم على الأضعاف المضاعفة أم على النسب القليلة؟ هذه آية متشابهة، هناك آيات متشابهة كثيرة، العلماء قالوا: الآيات المتشابهة مهما كثرت تُحْمَلُ على الآيات المحكمة مهما قلت، كيف؟ لو أن هناك مئة آية من نوع :

أَقْمَنَ زَيْنٌ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَأَهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۗ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (8)

سورة فاطر

يعني آية يُشْتَبِه عليك معناها، لعل الله أضله؟ أما من يشاء الإنسان يضلله الله؟ تحتل هكذا وهكذا، الآيات المتشابهات مهما كثرت تُحْمَلُ على الآيات المحكمة مهما قلت .

مثلا: القمح مادة خطيرة في حياة الإنسان، افتح المعجم " خطيرة " ، تعني قنبلة؟ لغماً؟ أم أنه مادة أساسية في حياتنا، كلمة متشابهة، خطيرة كلمة متشابهة، بعد قليل قلت: القمح مادة أساسية، ما معنى خطيرة إذا؟ أساسية .

فلو عندنا مئة آية متشابهة وآية واحدة محكمة، الآيات المتشابهات مهما كثرت تُحْمَلُ على الآيات المحكمة مهما قلت، وهذه الآية محكمة في نفي الجبر :

وجه الإعجاز العلمي في الآية :

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ إخواننا الكرام ، في هذه الآية إعجاز علمي، هذه الآية ومثيلتها .

رجل سفيه قلنا له: أنت سفيه، وسوف تقول هذا الكلام، بلغناه: أنت رجل سفيه، وستقول كذا وكذا، لو كان عنده ذرة نكاء ماذا يفعل؟ لا يتكلم، ظهر أن كلامنا غير صحيح، أليس كذلك؟

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَاهُمْ عَن قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ۗ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۗ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (142)

سورة البقرة

إن الله تعالى إذا أحب إنفاذ أمر سلب كل ذي لب لبه :

والآية نزلت، وقرئت، وعُمت، والسفهاء الذي قاله الله في حقهم قالوه، لو سكتوا لأبطلوا القرآن، لكن لو أن رجلاً يتمتع بنكاه عال جداً، وحكمة عالية جداً، وهو يؤدي الناس، كيف يعاقبه الله؟ يأخذ حكمته مؤقتاً، يأخذ نكاهه، ويرتكب حماقة ما بعدها حماقة .

يعني مع الله ليس هناك ذكي، أحياناً يكون الإنسان بأعلى درجة من الذكاء، يرتكب حماقة لا يفعلها مجنون ، ما من إنسان مقطوع عن الله إلا ويلهم الحماقة من أجل أن أطمئنكم، وهذه الحكمة من صفات المؤمنين .

يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ
(269)

سورة البقرة

تأكد أنه مستحيل أن تكون مقطوعاً عن الله إلا وترتكب حماقة يترفع عنها المجنون .
هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۗ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا ۗ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۗ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۗ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ (2)

سورة الحشر

دائماً حينما يعتد القوي بقوته، وينسى ربه يكون غروره طريق إلى دماره، والضعيف حينما يتجه إلى الله يلهمه الله الحكمة، والموقف السليم، بحيث يصبح قوياً بعد ذلك، يعني القوة فيها بذور الضعف، والضعف فيه بذور القوة .

إِذَا: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ وقالوا ذلك، معنى ذلك أن هؤلاء حمقى وأغبياء، ولو فكروا لسكتوا، فإذا سكتوا أبطلوا هذا القرآن الكريم .

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (2) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (3) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (4) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (5)

سورة المسد

والآية بلغت أبا لهب، لو ذهب إلى النبي، وقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله نفاقاً، أبطل السورة كلها، إن أعطاك حرية الاختيار في أية ثانية يأخذ منك هذه الحرية، ومع الله لا ينفع الذكاء .

وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ

أخرجه مسلم عن أبي هريرة

الجد هو العقل والذكاء والحظ، الذكي والعاقل مع الله لا يجديه عقله، بل تجديه استقامته فقط. لذلك قالوا: ما كل ذكي بعقل، الذكي معه اختصاص نادر، يحتاج إلى طاقات فكرية عالية جداً، لكن لأنه لا يعرف الله ولا يصلي، وما فكر فيما بعد الموت يعد مجنوناً، لذلك المجنون من عصا الله.

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ الآن كل واحد يقول: ترتيب سيدك، وهو تارك الصلاة، منحرف، عنده ملهى، هكذا الله قدر عليه، أن يفتح ملهى وهو لا علاقة له! الله أجبره! طاسات معدودة بأماكن محدودة، هذا كلام العوام كله، هذا كلام كفر .

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ لا تعترض فنطرد .

﴿وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ قال: هذا كلام كذب، لكن دائماً الكافر يُعزي أخطائه إلى الله سابقاً ولاحقاً، وملة الكفر واحدة، قال تعالى :

﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى دَافُوا بِأَسْنَانِهِمْ﴾ هل سمعتم بربكم أن إنساناً أخذ الأولى في الجامعة، وقال: هكذا الله قدر علي، أنا ما درست أبداً، لكن هكذا قدر الله علي، لا أحد يقول هذا الكلام أبداً، كل شيء إيجابي يُعزي إلى ذات الإنسان، أما السلبيات، أخطاؤه ومعاصيه، آثامه، طلق زوجته تعسفاً، ليس هناك نصيب، أنت مجرم بطلاقها، يأتي مريض إلى الإسعاف، طبيب قاعد مع ممرضة يتسلى، لا يريد أن يقوم على الإسعاف، يموت، سبحان الله! مات بأجله، هذا كله كلام دجل، وكذب، يحاسب هذا الطبيب كقاتل، نحن دائماً نعزو أخطائنا إلى الله، وإيجابياتنا نعزوها إلى أنفسنا، هذا الكافر، لا يناقش الكافر .

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ هذا قانون، ملة الكفر واحدة :

كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى دَافُوا بِأَسْنَانِهِمْ

﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى دَافُوا بِأَسْنَانِهِمْ﴾ الآن هناك شيء، يقول لك: أنا لست قانعاً بالدين، لأنه مرجع، هو مشرع، لست قانعاً بالحجاب، هذا ما كان سابقاً، هذا من عهد العثمانيين فقط، لست قانعاً بهذه ، قال :

يقولون هذا عندنا ليس جائز فمن أنتم حتى يكون لكم عند ؟

أنت مشرع ؟ أنت إنسان، أنت مشرع ؟ أنت نبي؟ لذلك من علامات آخر الزمان :
يا أبا ثعلبة كيف تقول في هذه الآية عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ قال : أمّا والله لقد سألت عنها خبيراً ، سألت عنها رسول الله ؟ فقال : (بل) انتمروا بالمعروف ، وتناهوا عن المنكر ،
حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً ، وهوى متبعا ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه ، فعليك بنفسك ، ودع عنك العوام ،

الألباني عن أبي ثعلبة الخشني وهو ضعيف

الشح المطاع الماديّة المقيّنة، إن أنفق المال أنفقه إسرافاً وتبذيراً، وإن منعه منعاً بخلاً وتقتيراً
(وَهُوَ مُتَّبَعًا) الجنس **(وَإِعْجَابٌ كُلُّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ)** الكبر، كل واحد هو المشرّع، غير مقتنع، يقول
 لك: ما دخلت في عقلي، وما هذا العقل؟ هو كل شيء يقيمه، يقبل أو يرفض .
 نحن في زمن صعب، فيه أهواء، وضلالات ، وفسق، وفجور، وكذب ، وضلالات كبيرة جداً .

قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ

﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ يا إخوان في
 البرامج والفضائيات وفي الإذاعات كلها على الكواكب والتنجيم، وحظك هذا الأسبوع، وهذا من برج
 الثور، وستأتي لك قبضة ، ولك صاحب يريد أن يعاديك، كله كذب، لا أساس له من الصحة كله كذب
 بكذب.

لأن هناك سرعة جديدة، أنه سعادتك مربوطة بحروف اسمك؟ الدين لا علاقة له، استقامتك،
 طهرتك، عفافك، ورعك، لا قيمة لها، عندك ثلاثة حروف فيها شقاء، وهذه خاصة بالزواج ، يرى حروف
 خطيبته وحروفه، إذا ما اتفقوا لا يتزوجها، صاحبة دين، محببة ، حافظة للقرآن ، ما لها قيمة، لا سعادة
 معها، حروف اسمها لا تتناسب مع حروف اسمه، دورات، كلام دجل بدجل بكذب بافتراء، لا أساس له
 من الصحة، عصر ضلالات .

﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾
قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (149)

سورة الأنعام

فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ

إخوانا الكرام، الله عز وجل حجته بالغة، والمؤمن معه حجة بالغة :

وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (83)

سورة الأنعام

والمؤمن له من هذه الآية نصيب، معه حجة قوية .

﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ كيف الآية؟ هذه آية متشابهة، يقول لك أحدهم:

الله ما شاء، ماذا نفعل نحن؟ هو لا يريد، يعني الله عز وجل جعلك المخلوق الأول، وأعطاك حرية
 الاختيار، أودع فيك الشهوات، أعطاك عقلاً، أعطاك فطرة، أعطاك شهوة، أعطاك حرية، أعطاك منهجاً،
 وقال لك: تحرك، الكون يدلك على الله، والحوادث تدلك على الله، وابنك الذي من صلبك يدلك على الله،

كنت مثله صغيراً، أنت كنت من ذرة ماء، من ماء مهين أيضاً، تستحي به لو كان على ثيابك، أعطاك كل شيء، أعطاك الأنبياء، والرسل، والكتب، والدعاة، رباك بخلقه، رباك بأفعاله، رباك تربية نفسية خاصة، رباك بالدعوة إليه، فأنت مخير، لذلك لما يغلط الإنسان، ويعزو خطأه إلى الله يكون ارتكب حماقة كبيرة جداً .

معنى : فَلَوْ شَاءَ لَهَذَاكُمْ أَجْمَعِينَ

الآن: لو أن الله عز وجل أرادك أن تكون مسيراً كبقية المخلوقات، الكون كله مسير إلا الإنسان والجن، الكون كله الجماد، والحيوان، والنبات، والمَلَك مسير، غير مكلف، غير معاتب، غير محاسب، ما عنده جنة و نار إلا الإنسان والجن، أودع فيهم الشهوات، أعطاهم حرية الاختيار، أعطاهم عقلاً وفطرة ومنهجاً، هم أخطؤوا، يا عبادي لو أردتكم أن تؤمنوا إيماناً قسرياً لهديتكم جميعاً.

الآن إذا أحب رئيس الجامعة أن ينجح كل الطلاب يعطي أمراً: اطبعوا على الأوراق الإجابة التامة، طُبعت بحروف المطبعة، وضعوا مئة على مئة بالأحمر، واكتب اسمك، واطلع، ألا يستطيع رئيس الجامعة أن ينجح جميع الطلاب، إذا أعطاهم أوراقاً طُبعت عليها الإجابة التامة، والعلامة مئة بالمئة ، طبعاً لكن هذا النجاح ما قيمته؟ لا قيمة له إطلاقاً، لا عند صاحبه، ولا عند المجتمع، ولا عند الجامعة.

أيها الإخوة، الإنسان هو المخلوق الأول، لأن الله كرمه بحرية الاختيار، والله عز وجل لا يريدنا أن نقبل عليه قسراً، نريد أن نأتيه طائعين مختارين، بمبادرة منا، لذلك: ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَذَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الهدى القسري لا يسعدنا .

لماذا كان الأنبياء ضعفاء ؟

لو أن إنساناً معه مسدس، قال لرجل: هات هذه الحاجة أو أقتلك، يعطيه إياها، لما قدم له هذه الحاجة أو القطعة هل يشعر الذي هُدد أنه قدم عملاً طيباً؟ هو مقهور، هل يرقى بهذا العمل؟ إطلاقاً، يمتلئ حقداً أساساً، أما حينما يأتي إنسان ، ويقدم لك شيئاً لوجه الله يتألق عند الله، يعني أنت لا ترقى إلا إذا كنت مخيراً، لا ترقى إلا إذا جئت طائعاً، لا ترقى إلا إذا جئت بمبادرة منك، لا ترقى إلا إذا كنت عن حب .

مثلاً: لماذا الأنبياء ما كانوا أقوياء؟ مثلاً ، الآن هناك أقوياء يعطون توجيهًا تجد مئة مليون نفذوا الأمر، لماذا كان النبي ضعيفاً؟ وقد رأى أحد أصحابه يُعذب أمامه فلم يستطيع أن يفعل له شيئاً ،

أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِآلِ عَمَّارٍ وَهُمْ يَعْذِبُونَ فَقَالَ:

أَبْشِرُوا آلَ عَمَّارٍ فَإِنَّ مَوْعِدَكُمْ الْجَنَّةُ

الذهبي عن أبي الزبير

والنبي تخفى بغار ثور، وهاجر خفية، ودمه مهذور، لماذا كان النبي ضعيفاً؟ ضعيف لأن ما عنده شيء يعطيه، ولا يُخيف، لو كان قوياً هل تستطيع أن تقول عنه: مجنون وتنام في بيتك مطمئناً، وقلت عنه: مجنون، وكاهن، وساحر، هل تستطيع أن تقول عن قوي: مجنون، وتنام في بيتك؟ لا تستطيع، لماذا كان النبي ضعيفاً؟ حتى يكون الإيمان به عظيماً كثيراً، لا هناك مغام، ولا هناك تهديدات، لذلك الإيمان بالنبي له أعلى قيمة، ما عنده شيء يعطينا إياه .

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْنَزْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ۚ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (188)

سورة الأعراف

لا أعلم الغيب .

قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (13)

سورة الزمر

هذه البطولة، إنسان معه مبدأ، معه حق، ضعيف، محارب، مضطهد، خائف .

لقد أوذيت في الله وما يؤدي أحد ، وأخفت في الله وما يخاف أحد ، ولقد أتت علي ثلاثون من بين يوم وليلة وما لي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال.

أخرجه أحمد في مسنده والترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه عن أنس

المطلوب الهدى الطوعي لا الهدى القسري :

ما عنده شيء، كان إذا أراد أن يصلي الليل لا تتسع غرفته لنوم زوجته وصلاته، لا تكفي، الآن يقول لك 480 متر، وإطالة، لا تتسع غرفته، وهو سيد الخلق لصلاته ونوم زوجته، ضعيف، لكن الإيمان به عظيم جداً، والآن إذا مشيت مستقيماً كل الناس ليسوا معك، معظم الناس ضدك أساساً، نحن عند أعدائنا إرهابيون، تحب زوجتك إرهابي، تصلي إرهابي، تطلق اللحية إرهابي، هل هذا الكلام صحيح؟ العالم كله يحارب الدين، هناك حرب عالمية ثالثة معلنه على الإسلام .

الآن إذا كان الشخص متديناً لا مغام إطلاقاً، بالعكس، الحياة كلها تصبح مغارم، ليست مغام، لكن البطولة الآن، أنت مع الحق، لا تعباً بالدنيا كلها، يعني ترون العالم كله منحازاً للباطل، يعني أوضح مثل ما يجري في فلسطين، يريدون ديمقراطية، هذه ديمقراطية، يريدون انتخابات مع إشراف من قبلهم، هذه إشراف من قبلهم، نجحت فئة تؤمن بالله، العالم كله يحاربها، أي بنك يحول لها يحاربونه، الآن هناك أزمة تحويل، ما في، شخص معه القليل من اليورو مسكوه على الحدود وأخذوه، العالم كله

ضد الدين، لذلك الإيمان الآن غالٍ جداً، لا تنتظر مغنماً، وبالعكس عليك مغارم كثيرة، لكن الله مع المؤمنين، إذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟ لذلك: ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الهدى القسري سهل جداً على الله عز وجل، الله يريدنا أن نأتيه مختارين طائعين، يريد أن نحبه، لا أن ننصاع قسراً له، لذلك أعطانا حرية الاختيار، وقال :

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۚ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (256)

سورة البقرة

الآن الإنسان يكفر، ويشتم الإله أحياناً، وجسمه تمام صحيح، مع أن الله عز وجل قادر بكن أن يصبح جثة هامة بكلمة، نحن تحت رحمة الله كلنا، لذلك الإيمان الآن ثمين جداً، أنت تؤمن من غير مغارم أبداً، بل هناك مغارم، معنى ذلك أن الإيمان يرقى بك إلى أعلى عليين .
هذه معنى الآية :

﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لكن هذه الهداية لا قيمة لها إطلاقاً لا عنده ولا عندنا، ولا عند أصحابها .

والحمد لله رب العالمين